الفصل الخامس

الحرب

ونزلت الكارثة، فالحرب التي صبغت بالدماء ارجاء الحبشة ، واسبانية ، والبانية ، والصين ، امتدت الى اوروبة كلها وجعلت تجر خلفها ، في خط من الموت والخراب ، جميع امم العالم .

اندلعت الحرب العالمية الثانية اثر ازدياد ازمة الرأسمالية عمقاً ، وفقدان التوازن بين القوى الرأسمالية الاستعمارية الكبرى، وكان سببها المباشر عدوان الدول الفاشية التي قامت تحاول بسط نفوذها على العالم ، واخضاع الشعوب جميعها لنيرها ، وتدمير آخر مظاهر الديموقراطية في جميع بلدان العالم ، كما فعلت في ايطالية والمانية. وقد آزرت الرجعية العالمية المعتدين الفاشيين مؤازرة فعلية مباشرة، وذلك بمسايرة المانية ومعاملتها بسياسة التساهل ، اي سياسة المشاركة في الجريمة ...

اعلنت حكومتا لندن وباريس الحرب على المانيا ، ولكن الفرق الفرنسية المئة والعشرين ، والفرق البريطانية العشر لم

تقم بأي نشاط جدي ضد الفرق الالمانية الثلاث والعشرين التي كان هتلر يحتفظ بها على الحدود الغربية، حين كان يكتسح الشطر الاعظم من جيوشه، اراضي بولونية ، وجمدت حكومة دالاديبه الجيش في قلاع خط ماجينو وخنادقه ، وهكذا سحقت بولونيا، وسمحت هذه الخطة لهتلر بان يعود بجيوشه نحو الغرب فيما الجيوش الفرنسية قابعة في مراكزها ؛ واستكمل هتلر تسلحه واستعد لغزو بلادنا ، والواقع ان حكومة فرنسا لم تكن تفكر في حربها ضد المانيا بقدر تفكيرها بالحرب ضد الاتحاد السوفياتي .

كانت حكوماتنا البورجوازية تتجنب اغضاب هتلر ، وتداعب في اعماقها حلماً ، وترجو ان تتفاهم مع زعيم الرايخ ، لكي يشن هجوماً على الاتحاد السوفياتي ، وهي خطة مجرمة عادت على فرنسا بالهزيمة الشنعاء ...

واندلعت الحرب الفنلندية في كانون الاول ١٩٣٩ اثر استفزاز الحرس الابيض الفنلندي للروس . واطلقت الصحافة الفرنسية الرجعية شواظ حقدها على الاتحاد السوفياتي . وكتب ليون بلوم في صحيفة « الشعبي » بتاريخ ٦ كانون الاول ١٩٣٩ « لقد حجب الخطر الهتلري ، طوال سنوات عدة ، الخطر الروسي عن اعين الفرنسيين ، اما عدونا الحقيقي ، فهو الاتحاد السوفياتي » هكذا قام بطل « الحياد » البائس يطالب ، هذه المرة ، بارسال الطائرات والمدافع والذخائر الى فنلندة، وترأس جوهو لجنة « اغاثة فنلندة » .

وفي ١٢ آذار ١٩٤٠ اعلن دالاديه في المجلس ارسال نجدة عسكرية الى فنلندة ، مؤلفة من ٥٠٠٠ رجل . واقتطع « لا شامبر » وزير الطيران من الطيران الفرنسي الهزيل ١٧٥ طيارة مطاردة وارسلها الى الجرس الفنلندي الابيض . ولكن هذه « النجدة » وصلت متأخرة . اذ خرق الجيش الاحمر خط الدفاع الفنلندي وزحف على هلسنكي ، ووقعت وثيقة الهدنة بين الاتحاد السوفياتي وفنلندة .

وفي سوريا كان ويغان على رأس ١٥٠٠٠٠ جندي يوني وجهه شطر القوقاز استعداداً لغزوه ، وفي رسالة مؤرخة في ١٧ نيسان ١٩٤٠ اقترح ويغان قصف باكو بالقنابل ، وتدمير ينابيع البترول في شهر حزيران ، اي الشهر نفسه الذي كان على ويغان ان يفرض فيه هدنة « روتوند » على نفسه وعلى حكومة من المفلسين والجبناء ...

كان القادة الفرنسيون يجيدون التفكير في احراق آبار باكو البترولية ولكنهم لا يتجرأون على اطلاق رصاصة واحدة على الخط الحديدي الممتد من بال الى كارلسهي بمحاذاة نهر الرين ...

لم يكن رجال المئتي عائلة ، الخونة الذين تعاونوا مع هتلر فيما بعد ، يأملون التفاهم مع الطاغية الالماني وحسب ، بل كانوا يتاجرون معه ؛ ففي آذار ١٩٤٠ فضحت هذه الحقيقة مجلة « هاربر ماغازين » الاميركية حين اثبتت ان ثمة صناعيين يبيعون لالمانيا المواد الخام المستخدمة لصناعة القنابل والمدافع

التي يستعملها الالمان لقتل افراد الشعب الفرنسي .

وفيما كانت خطة الحرب على الجناحين (فنلندة — سوريا) تلاقي الفشل والافلاس ، كانت الحكومة الفرنسية تتابع عملها في شل ممكنات البلاد من الناحيتين الاقتصادية والصناعية ؛ والى جانب خيانات اصحاب الاعمال الانهزاميين ، ظهر عجز الرؤساء العسكريين وضيق افقهم ، اما الفئات الحاكمة ، بخاصة ، فقد انشأت ، ازاء عجزها عن محاربة هتلر ، تحارب الطبقة العاملة الفرنسية وحزبها الشيوعي .

وفي الثالث من ايلول ١٩٣٩ دُعيتُ الى الخدمة العسكرية في الفرقة الهندسية الثالثة بمدينة آراس . وكانت الملاحة مهنتي القديمة فعينت في فرقة للملاحة ، مرابطة في شوني ، على ضفاف قناة سان كانتان . وفي الاسبوع الاول ، وكنا لا نزال في « فامبو » وهي قرية صغيرة من قرى الارتوا ، زارني بعض الرفاق من مدينة آراس . وقد جاؤوا يخبرونني بنبأ الحكم على رينيه واوغست ليكور وسيبريان كينيه النائب الذي سجنه جماعة مونيخ وسلمه الفيشيون الى النازيين فاعدموه فيما بعد . وقد هرب رينيه كامفان واصبح يعرف باسم الكولونيل بودوان .

واوغست لوكور هو الذي نظم مع كالون اضراب عمال المناجم في البادي كاليه في شهري ايار وحزيران ١٩٤١ ، ذلك الاضراب المجيد حقاً ، وحارب اثنان من آل كامفان : بول

وموريس ، في صفوف الرمـاة الاحرار — وهم من الثوار — وفي صفوف الانصار الفرنسيين ، واعتقلهما الالمان واعدموهما رمياً بالرصاص بعد ان ساموهما افظع العذاب . وقد جاء بول قبل ذلك وزارني في فامبو ، وكان في السادسة عشرة ، فقلت له « تذرع بالشجاعة والثقة ، فالمستقبل لنا مهما حدث ! »

وفي عام ١٩٤٣ اطلعنا عـــلى الرسالة الاخيرة المؤثرة التي كتبها بول وهذه نهايتها :

« .. واخيراً سأغادر حياتي هذه الصغيرة ولما ابلغ الواحدة والعشرين من العمر ، سأغادرها لكي يصبح ابناء فرنسا احراراً سعداء ...

«وانا لم اخن قضية الحزب، ولذلك امضي والبسمة على شفتي والاغنية في فمي فالموت لا يخيفني .

«الوداع ياحزبي الجميل ، العظيم ، الوداع يا بلادي الفتـــانة الساحرة . تقبّلي تحية رجل يشرف على الموت .

« عاش الحزب الشيوعي ، عاشت فرنسة » .

وفي اصيل احد ايام الشتاء المربدة المدلهمة ، ذهبنـــا الى خنادق مدينة آراس القديمة وانحنينا امام الـ ١٩٣ لوحة التي تحمل اسماء الاخوين كامفان وسائر المواطنين الشهداء ، واكثرهم من عمال المناجم الشيوعيين الذين اعدمهم الالمان بالرصاص في تلك الساحة ، وكنت استعيد في ذاكرتي ، وجه الفتى بول كامفان

المنشرح الطلق ، يظهر لي امـــام هـذا الوتد ، حيث قيده الجلادون .

ولم تكن فامبو تبعد عن نوايل أكثر من ١٥ كيلومتراً ، وفي صباح احد الايام قدم والدي لتحيتي ، ولم اره بعد ذلك ، فبعد شهور عدة ، توفي ، وطوال المدة التي مرض خلالها والدي ، وحتى خلال الليلة التي سهر فيها اصحابه عليه وهو على فراش الموت ، كان رجال شرطة دالاديبه يحومون حول منزلنا الصغير . وفي يوم الدفن ، هاجم الحرس المقبرة وسط سخط الآلاف من عمال المناجم ، وجميع السكان ، فقد كان الاعداء والاصدقـاء مجمعين على احترام اسرتنا .

وكان رجـال الشرطـة يبحثون عني ففي ٢٦ ايلول ١٩٣٩ اصدرت الحكومة قراراً غير شرعي ، بحل الحزب الشيوعي ، وهذا القرار يعد الشيوعيين خارجين على القانون ، والمنظمات الشيوعية منحلة ، منذ ذلك الزمن تخطيت قراراً كنا قد اتخذناه وهو ان « الشيوعيين ينخرطون في الجيش اذا ما دعـا الداعي » واتخذت ادارة الحزب قراراً يطلب الي التحول الى النشاط السري ، وكان من واجب الحزب وادارته اتخاذ التدابير التي تتيح احباط مؤامرة الهتلريين وانصـارهم من الخونة الذين كانوا يهدفون الى اكتساح فرنسة والقضاء عليها .

كان من واجب الحزب ، في سبيل مصلحة فرنسا وشعبها ان يحافظ ، مهما كان الامر ، على منظماته الشيوعية ، التي قدر

لها ان تلعب فيما بعد دوراً اساسياً في معركة التحرر الوطني ، وكان على الحزب ان يؤمن سلامة ادارته واستمرارها ، وان يسهر على حياة قادته وموجهيه .

في الرابع من تشرين الاول تركت شوني ، لاستعادة موقعي في النضال ، على رأس المناضلين الشيوعيين الذين كانوا يعانون المطاردة والاضطهاد لانهم كانوا يفضحون الخونة من عملاء هتلر ، وعلى الرغم من حملة الافتراءات والاكاذيب التي عانيتها ، كان رفاقي في الجيش ، بمن فيهم من رؤسائي ، يكنون لي الاجلال والاحترام ، ويمحضونني ثقتهم ، وقامت على هذا ادلة كثيرة ، وقد عرفت بعدئذ ان الكولونيل قائد موقع شوني احتج وانف من التجسس عليّ ، كما اراد له السياسيون والرؤساء ...

وكانت ذريعة الحكام لحل الحزب الشيوعي ، ومنعه من ممارسة نشاطه ، رغبتنا في المحافظة على الصداقة الفرنسية السوفياتية ، وكانوا يطلبون الينا انكار الرفيق ستالين ، والتخلي عن مثلنا الشيوعي الاعلى . وقد عرف الشعب فيما بعد كم كنا على حق . فما الذي كان احاق بفرنسة وبالعالم لولا الاتحاد السوفياتي وجيوشه المظفرة وقائده العظيم ؟

وفي سبتمبر ١٩٣٩ كممت السلطات افواهنا لكي تمنعنا من الهتاف بالحقيقة . فمنعت صحيفة « الاومانيتيه » : صحيفة جوريس وكاشان ، من الصدور ، وهذا التدبير التحكمي نفسه اصاب « سيه سوار » صحيفة جان ريشار بلوخ و آراغون ، وفي

٢٧ ايلول حيّا ليون بلوم ، انتصار هتلر على حزبنا وصحافتنا ومناضلينا فكتب :

« احسّ بان اغلبية حزبنا الاشتراكي ترى في حل الحزب الشيوعي الفرنسي تدبيراً طبيعياً عادلاً » .

وعلى رغم الاضطهاد والشتائم والافتراء والمطاردة ، استمر الحزب الشيوعي الفرنسي يحيا ويناضل ، واتخذت الفئة البرلمانية الشيوعية اسم « فئة العمال والفلاحين » واخذت « الاومانيتيه » تصدر سراً .

وفي اوّل تشرين الاول ١٩٣٩ وجّه فلوريموند بونتي ، امين السر العام للفئة البرلمانية الشيوعية ، الى الرئيس هريو ، رسالة يطالب فيها باجتماع مجلسي الشيوخ والنواب لمناقشة القضايا الخارجية مناقشة علنية ، فأجاب دالاديبه بمطاردة النواب الشيوعيين واعتقالهم .

وزج النواب المعتقلون في غياهب السجون ، الى جانب اللصوص والنشالين والقتلة ، وسيطر على فرنسا عهد لا يقيم كبير وزن للحقوق والشرائع ، فاللاشرعية كانت هي القانون السائد . وهكذا خرقت ابسط مبادىء الديموقراطية وحرم ١٥٠٠٠٠٠ من الفرنسيين ممثليهم في الندوة النيابية ، وحلت اقوى النقابات واعظمها تأثيراً ، فبارك « جوهو » و « بيلان » هذا القرار ، واعتقل مئات من المناضلين ، وسجن « بيار سيمار »

وكتب له ان لا يخرج من السجن الا لكي يسلمه جلاذوه الى خشبة الاعدام الهتلرية...

ونجح بنوافرنشون في النجاة من الاعتقال ، فقضى خمس سنوات يوجه حركات المقاومة السرية...

وتضاعف عدد ثكنات الاعتقال في طول فرنسا وعرضها . وغصت بالمشبوهين و «الخطرين على امن الدولة» ونزلت ضربات الحكام بالالوف من العمال ، خوفاً من ان يعمد هؤلاء الى الخيانة المنظمة .

وكان نوابنا الذين لا يزالون احراراً ، يغتنمون الفرص جميعها ، ويدللون على شجاعتهم وبطولتهم ، ويذكون النار المقدسة في اعراق الامة . ففي ٣٠ تشرين الثاني اذن الحزب الشيوعي لفلوريمونـــد بونتي ، فاخترق نطاق رجال الشرطة ، ودخل الى المجلس النيابي ، واتخذ مجلسه ممثلا للشعب . ثم نهض وسط تصخاب المونيخيين والخونة ، يطالب باحترام القوانين الدستورية . ولكنه انتزع من مقعده ، وأخرج بالقوة ، بعد ان ناله الكثير من الضرب والشتائم . وسلمه النواب « لزملائهم » رجال الشرطة... اما الحصانة النيابية فكانت كلمة جوفاء...

وفي التاسع من كانون الثاني ١٩٤٠ حضر الى المجلس النيابي أربعة من النواب الشيوعيين العائدين من ساحات القتال ، في

اجازات رسمية . ولكنهم اخرجوا من المجلس باللطم واللكم .

واثر ذلك اقترح الفاشستي شياب مشروع قانون بفسخ نيابة الشيوعيين وتجريدهم من مراكزهم ، فتصدى له اتيان فاجون وكان قد وصل في ذلك الصباح من الجبهة ، وصار عليه ان يواجه اجماع مجلس سيطر عليه شعور الحقد والخوف ، وتحكم بجميع اعماله .

ونهض شاساني النائب الاشتراكي ، وعميل فيشي فيما بعد ، يطالب « برصاصة في صدغ كل نائب شيوعي » . اما بارتيلمي ، وهو نائب اشتراكي آخر ، فكان يطالب بالمقصلة للشيوعيين ، وعين النائب الشيوعي كاتيلا ضحية اولى « لتجربة المقصلة... » وكأن الاقدار استجابت لرغبة بارتيلمي فأعدم كاتيلا فيما بعد...

وكان تجريد النواب الشيوعيين من مراكزهم لم يصدر ، حتى ذلك العهد ، الا بمناسبة احكام عدلية جائرة ، تحرم النائب حقوقه السياسية ، اما الآن فقد استغنى الحكام عن ايـا قاعدة شرعية ، فقررت السلطة التشريعية ، على نحو تحكمي محض ، تجريد النواب الشيوعيين من مراكزهم التي نالوها في انتخابات شعبية عامة .

لقد جأر اتيان فاجون بالاحتجاج العنيف الصارخ ، فقال : بوسعكم اليوم ، يا سادة الحكومة ، ان تضطهدونا ، وان تسجنوا بعضنا ، وتطردوا آخرين من الندوة النيابية . ولكنكم اعجز

من ان تحطموا ارادة الشعب ، ارادته في الاحتفـــاظ بمكاسبه الاجتماعية ، وهي ثمرة نضـاله الطويل ، ارادته في السير المستمر على طريق التقدم الاجتماعي والاقتصـادي والسياسي ، وهذه الارادة الشعبية ستعبر عن ذاتهـا ، على الرغم من قراراتكم ، يا سادة الحكومة ، واخطهـاداتكم ، هذه الارادة ستغدو يوماً اقوى منكم...

كانت ديكتاتورية دالاديه الرجعيـة تمهد الطريق لثورة « بيتان » القوميـــة . وفي ٢٠ آذار بدأت محاكمة النواب الشيوعيين . وقد وجهت الينا تهمة خرق القوانين الصادرة في٢٦ ايلول ١٩٣٩ والقـاضية بحل المنظمات الشيوعية ، واتهمنا ايضاً باننا عملنا على نشر الشعارات الصادرة عن الاممية العمالية الثالثة ، واننـا الفنا جماعة « العمال والفلاحين الفرنسيين » واصدرنا نداء اول تشرين الاول ١٩٣٩ الداعي الى السلم والتحرر بقيـــادة الاتحاد السوفيـاتي . وكان « القضاة » قد غيّروا من نصوص النداء وعدلوا فيها وزوروا بعض الفقرات...

وطلب رفاقنا الماثلون امام المحكمة العسكرية الاستماع الى شهادة دالاديه وبونيه ، فامتنع كلاهما عن الشهـادة . هكذا كان النواب الشيوعيون يناضلون خطوة فخطوة، في عزم وعناد، ووضع الكثيرون في زنزانات منفردة لتختنق اصواتهم ، ولكن محاميهم مارسيل ويلار ردد في ساحة المحكمة اقوال بلانكي :

« انا ماثل امامكم ايها القضاة. ولكنني لا اخاطبكم وحدكم.

انني اوجه كلامي الى شعب فرنسا بأسره ، وهو اعلى محكمة للعدل ، اعرفها ، وانها المحكمة الوحيدة التي لا تقبل احكامها مراجعة ولا نقضاً...

وانهى رفيقنا ويلار خطابه قائلاً :

ايها القضاة . لا شأن لنا الا باولئك الذين زرعوا الريح ، وسخروكم لكي تجتنبوهم العاصفة ، اما العاصفة ، فسيلاقونها ...

ومع ذلك ارتدت المحاكمة طابعاً سرياً ، وحفظ المعتقلون في الزنزانات ، وافلح النواب الشيوعيون ، اثناء جلسات المحاكمات السرية ، في جلاء الحقيقة ، ودحض أكاذيب الاتهام وافتراءاته .

ودلل شهود الدفاع ، بتضامنهم مع المتهمين ، على شجاعة فائقة ، وجاء دور مارسيل كاشان ، بعد الغاء مركزه في مجلس الشيوخ ليؤدي شهادة صادقة في رفاقه المعتقلين ، وجاء صديقنا المخلص ، والكاتب الكبير جان ريشار بلوخ ، والاستاذ هنري والون ، فعبروا ، في ساحة المحكمة عن اعجابهم بالشيوعيين ، اما بول لانجفان ، وهو من امجاد العلم الفرنسي ، فقد جاهر امام القضاة بانه يؤيد المتهمين ويتبنى عقيدتهم وانه يؤمن مثلهم بامكان تطوير العالم بل بضرورة هذا التطوير .

واعلن فرانسوا بيو في تصريحه الاخير امام المحكمة ، بانه يحمل ورفاقه بصراحة ، تبعة ما يؤمنون به ، وما ينشطون في

سبيله ويجاهدون ، سواء بالقول او بالكتابة او بالعمل .

« نحن نحب فرنسة ، وما يؤلف فرنسة ويبني كيانها اعني شعبها... نحن نحب شعب فرنسا ونرغب في تحريره من اولئك الذين يريدون ان يقودوه نحو الخراب والقبور... نحن اميون، ولذلك نعتبر كل انتصار تحرزه الطبقة العاملة ، في اي بلاد كانت، انتصاراً لنا... نحن ننظر الى بناء الاشتراكية في الاتحـــاد السوفياتي على انها المرحلة الاولى من مراحل الثورة العالمية التي ستؤدي الى تحرير الشعوب من الاضطهـــاد والحروب ، ونحن انما نعمل لتحرير بلادنا ، عاش الحزب الفرنسي ! عاش الاتحـاد السوفياتي ! عاشت فرنسة قوية سعيدة حرة ! »

وماذا كان حكم القضاة ؟ لقد حكموا بالسجن خمس سنوات، وبغرامة قيمتهـا خمسة آلاف فرنك ، وبفقدان جميع الحقوق المدنية والسياسية على كل من الـ ٢٦ نائباً شيوعياً الذين كانوا قيد الاعتقال ، وعلى سائر النواب الذين كانوا فارين .

وفيما كانت الحكومة الفرنسية تحقق انتصاراتها الساحقة على النواب الشيوعيين ، فتنكل بهم كما يحلو لها ، خلا الجو للخونة النازيين والجواسيس الهتلريين ، فجعلوا يمارسون نشاطهم احراراً من كل قيد .

وبعد اسابيع قلائل انطلقت الجحافل الهتلرية في هجومها على فرنسة . لقد عمل الطـــابور الخامس وسائر رجال هتلر المناهضين للشيوعية فأحسنوا العمل . وكانت فرنسة غنيمة باردة للنازيين ، بعد ان خضعت وانحلت ودب فيها الشقاق والخور .

بدأ الهجوم الالماني في العاشر من تموز ١٩٤٠ في بلجيكة واللوكسمبورج ، وكان الجيش الفرنسي بالاضافة الى المعونة البريطانية والبلجيكية والهولندية ، اكبر عدداً من الجيش الالماني ، ولكنه كان يفتقر الى الطيارات ، اما مدرعاته التي كانت تعدل او تفوق المدرعات الالمانية بالعدد والنوع ، فلم تكن موزعة في الجبهة ، على شكل وحدات مدرعة كبرى .

واثر اشتداد هجمات الطيارات الالمانية والدبابات تحطمت خطوطنا في « سيدان » وتدفقت جيوش العدو نحو السوم ثم انكفأت نحو الشمال ، مطوقة افضل فرقنا التي غامرت بنفسها في بلجيكة وعادت الآن تنسحب شطر دانكرك مع الجيوش البريطانية ، وافلح جزء من الجيوش الحليفة بركوب البحر ، اما الاعتدة ففقدت كلها .

بعد هذه الكارثة أقال رينو الجنرال غاملان واستدعى ويغان لقيادة الجيوش الفرنسية . فجاء القائد الاعلى الجديد واستكمل الهزيمة ، فكيف يستطيع الرجل الذي فكر طويلاً بالزحف على باكو ، ان يوقف الزحف الالماني على باريس ؟

ان الروح الرجعية التي تحرك هذا الجنرال ، المشبع بجميع اوهام العرق ، والذي يكره الشعب ويحقد عليه ، ويقاوم الحركة العمالية العالمية (فقد حارب الجيش الاحمر في بولونيا عهد معركة ١٩٢٠) هذه الروح المتعصبة الرجعية ، ظهرت جلية اثناء الاسابيع العصيبة التي شهدت انطلاق المدرعات الالمانية شطر

السوم والبرانس .

وكان بول رينو قد اصطفى ديغول اميناً عسكرياً لسر الدولة ، واشرك ، من قبل ، بيتان في حكومته ، وعين الجنرال دانتز حاكماً لباريس ، فسارع هذا الجنرال النازي الى اعلان باريس مدينة مفتوحة ، وفيما كانت جيوشنا تتراجع ، وتتراجع ، كان وزراؤنا وقوادنا لا يفكرون الا في اضطهاد العمال ، وزيادة غضبة الشعب بتدابير جائرة طاغية . وفيما كان تهديد الالمان لباريس يتعاظم ساعة فساعة، حملت جبهتنا المركزية الى الحكومة ، يوم السادس من حزيران ، المقترحات التالية :

يرى الحزب الشيوعي ان من الخيانة تسليم باريس للمجتاحين النازيين ، ويرى ان اول الواجبات الوطنية تنظيم الدفاع عن العاصمة ولهذا يجب :

١) تطوير مظهر الحرب ، وتبديل طبيعتها ، وجعلها حرباً وطنية قومية في سبيل الاستقلال والحرية .

٢) اطلاق سراح النواب الشيوعيين والمناضلين وكذلك عشرات الآلاف من العمال المعتقلين بلا سبب .

٣) المبادرة الى اعتقال عملاء العدو ، الذين تزخر بهم مجالس الوزارة والبرلمان والقيادة العسكرية ، وبعد اعتقالهم يحاكمون ويعاقبون باقسى العقوبات ليكونوا عبرة لسواهم .

٤) ان هذه التدابير الاولية ستلهب ولا شك الحماسة

الشعبية وتتيح نهضة جماهيرية ثورية ، على الحكومة ان تعمل لها بلا ابطاء .

٥) يجب تسليح الشعب ، وتحصين باريس حتى تصبح مدينة منيعة تعز على دبابات العدو وطياراته .

اقترحنا على الحكومة تسليح الشعب ، ومناجزة الاعداء حتى آخر رمق ، فأجابت بالاستسلام .

اراد الشيوعيون ان يستقبل الشعب الاعداء الهتلريين في العاصمة ، بطلقات البنادق ، ولكن ويغان كان يرى غير هذا الرأي ، فاسمعه يصرّح : « اذا دخل الالمان باريس ، فالحكومة ترى من واجبها المعنوي ان تستقبلهم فتحسن استقبالهم » .

وفي الثاني من حزيران اجتمع الوزراء في « كانجاي » بتورانيا . وكان يحرك ويغان — كما يقول برتيناكس في كتابه «حفارو القبور» حقده العارم على احزاب اليسار والاشتراكيين ، والبناة الاحرار ، والديموقراطية ، والمؤسسات البرلمانية ، هذا الحقد الذي تحول الى جنون ، بعد اقالته من مركزه في كانون الثاني ١٩٣٥ وظل يصاحبه مدى حياته ، ودفعه في ذلك الاجتماع الى المعارضة بانشاء موقع للحكومة في جبال بريتانيا ، وان يطالب بالاستسلام دون قيد ولا شرط ، وايده رينو وبيتان ، وفي اليوم التالي ، في مدينة تور ، لجأ الجنرال بسيم الى الكذب والتهويش :

« فقد وصل الى اجتماع مجلس الوزراء متأخراً ، فوجه كلامه الى رئيس الجمهورية واعلنه ان موريس توريز احتل قصر الاليزيه — مركز رئاسة الجمهورية في باريس — وتسلم الاحكام في فرنسة ، فنهض ماندل وخاطب مدير البوليس بالهاتف فاتضح كذب ويغان ، فثار هذا وخاطب مندل بقوله : ماذا ؟ او ترتاب في قولي ؟

كان خلفاء تيبرس وتروشو يحركون شبح « الكومون » المرعب ويجهدون بذلك ليقنعوا زملاءهم المترددين بانجاز سياسة تعاون مع هتلر .

وادت الخطة الشنيعة التي دبرها بيتان وويغان ولافال الى هزيمة روتوند واتفاقيتها المخزية (٢٥ حزيران) فسلم هؤلاء ثلثي اراضي فرنسة الى المانيا ، وجردوا قوانا الحربية من الاسلحة ما عدا القوات اللازمة لحفظ الامن ... وكان على اولي الامر تسليم جميع الاعتدة والاسلحة الموجودة في فرنسة غير المحتلة ، وكان عليهم وضع الاسطول الفرنسي قيد المراقبة الالمانية ، ودفع ٥٥٠ مليون فرنك يومياً لنفقات جيوش الاحتلال . وكان مليون ونصف المليون من الاسرى الفرنسيين في ايدي الالمان .

والعصبة التي سلمت فرنسا لهتلر وجدت في الهزيمة ظرفاً مناسباً منشوداً لتركيز دعائم الفاشية في البلاد ، وكان انتصار الرجعية ، تدعمه حراب الجيوش الاجنبية ، وتباركه القيود التي

ترزح فيهـــا الامة « مناسبة إلهية » امتدحها شارل موّراس « صاحب نظرية القومية الكاملة... »

وفي فيشي ، يوم العـــاشر من تموز ، وبعيداً عن الجماهير الشعبية ، كان لافال يكتب آخر انفاس الجمهورية ، وكان المجلس النيابي المسترق يوقع وثيقة اعدامه بيده ، وكان ذلك آخر عمل لهؤلاء النواب اذ سمحوا بمنح المراسيم التشريعية للحكومة، فتخلوا شيئاً فشيئاً عن سلطاتهم في المراقبة والتشريع، ورضوا بحرمان النواب الشيوعيين مراكزهم النيابية دون مبرر .

هكذا تلاشت الجمهورية الثالثة من دون مجد ؛ وفي الماضي قاد خطاها الاولى ماريشال منهزم ، واليوم يحملها ماريشال منهزم الى مطاوي التراب... من ماكماهون الى بيتان...

في ذلك النهـــار نفسه الذي شهد سياسيي البورجوازية يستعيدون تقاليد « فرساي » ، ويركعون على اوحال الهزيمة ، ويسجدون للحكم الفردي الطاغي ، كنا نحن خلفـــاء ابطال « الكومونا » نعلن ايماننـا الراسخ بمستقبل فرنسا ، وبانتصار الديموقراطية .

فقد اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي بياناً موقعـاً باسمي وباسم ديكاو ، نشرته صحيفة الاومانيتيه السرية جاء فيه :

«لقد عرفت فرنسة الهزيمة والاحتلال والذل، ولكن فرنسة

التي لا تزال دامية الجراح تريد ان تعيش حرة مستقلة ، فشعب عظيم مثل شعبنا لن يغدو ابداً شعباً من الارقاء ، ولن تصبح فرنسة قط ضرباً من البلدان المستعمرة ، ففرنسة ذات التاريخ المجيـــد لن تجثو امـام عصبة من الخدم المستعدين لجميع الاعمال الحقيرة ؛ وليس القادة المدحورون ، ولا اصحـاب الاعمال ، ولا السياسيون المفلسون ، هم الذين يستطيعون انهاض فرنسة ، ففي الشعب وحده تكمن كبريات الآمال في التحرر الوطني الاجتماعي ، وحول الطبقة العـاملة الناشطة الكريمة ، الممتلئة بالثقة والبسالة ، يمكن ان تتألف جبهة النهضة والحرية والاستقلال .

اما الجنرال ديغول ، فقد اعلن من اذاعة لندن ، في العاشر من حزيران : انا ، الجنرال ديغول ، الموجود الآن في لندن ، ادعـو الضبـــاط الفرنسيين ، والجنود النـازلين في الاراضي البريطانية ، اليوم او في المستقبل ، مع اسلحتهم ، او بدون اسلحة ، وادعو كذلك المهندسين ، والعمال المختصين بصناعات التسلح ، ادعوهم جميعاً الى الاتصال بي ...

اسلحة ... تسلح ... صناعات التسلح ... انا ديغول ... هكذا كانت ترتسم قضية فرنسا وشعبهـا في ذهن هـذا الجنرال الاحمـق ... وفيما كان كل شيء عـــلى ارض الوطن — المؤسسات والاحزاب — يغرق في الاضطراب ، او ينزلق الى الخيانة والنذالة ، كان حزبنا الشيوعي يسير وحده في الطريق

التي تؤدي بالبلاد الى الحرية والنصر ...

وكان القيشيون يتحدثون ، في نفاق ما بعده نفاق ، عن « الثورة القومية » وكانوا ينشرون صيغهم الخداعة : « مراقبة الاقتصـــاد على قاعدة غير رأسمالية ، ومكافحة التروستات ، والعودة الى الارض ، والغاء صراع الطبقـات ، وجعل الدولة فوق الطبقات ...الخ ... الخ ... » ولكن من وراء واجهة « الانسجام الاجتماعي » (الذي كان ينادي به بيتان) كانت جماهير العمال تكتشف يوماً بعد يوم حقيقة الاضطهـاد القاسي ، والعبودية السوداء .

وكانت اكذوبة « الثورة القومية » هذه، تتيح للالمان، في الدرجة الاولى ، نهب فرنسا نهباً منظماً ، فكانوا يستولون على كل شيء : على القمح والنبيذ والمواد الغذائية والاولية والحيوان والمنتوجات المصنوعة ، والعُدد الصناعية والسيارات والمحركات والمركبات ...

وهكذا لم تكن اللارأسمالية القيشية الا تهويشاً وخداعـــاً شأنها في ذلك شأن اللارأسمالية الفاشية .. ومن البدهي انه ليس ثمة اشتراكية حيث يحتفظ الاقتصاد بخط الانتاج الرأسمالي ، وغايته انتاج راس المـال ، والبحث عن الكسب الرأسمالي ، ويترتب عليه حتما استثمار الانسان للانسان ، فالقيشيون كانوا يرون ضرورة الكسب الراسمالي ، وهـذا ما اعلنه بيتان في خطابه بسان اتيان ، اما رجال المئتي عائلة ، واصحـــاب

التروستات فقد جهدوا لوضع الاقتصاد الفرنسي في خدمة المانيا .

وكان الفيشيون يتحدثون عن العودة الى الارض ، فكانوا يستجيبون لرغبات الاستعمار الالماني الذي كان يريد تأسيس نظامه الرأسمالي في طول اوروبة وعرضها ، بحكر الصناعة وارغام البلاد الاخرى على الاكتفاء بالانتاج الزراعي . والواقع ان حاجة فرنسة ، في عهودها الطبيعية، لم تكن الايدي العاملة، بل الآلات والاسمدة ، والبذور المؤصلة والقروض، والطرقات المعبدة الصالحة ، والكهرباء ، والمياه الخ...

وكانت فرنسة تنتج قبل الحرب ، من القمح ، اكثر من حاجتها ، وكانت اعظم بلد منتج للخمور في العالم .

وازدادت الحالة في الارياف سوءاً على سوء ، وكان الالمان يصادرون المحصولات والماشية والجياد . وبلغ عدد الفلاحين المعتقلين ٨٠٠ ٠٠٠ فلاح .

لقد اعلن بيتان « الغاء صراع الطبقات » ولكن عهده ، يعني عهد المئتي عائلة ، كان التعبير عن معركة عنيفة يخوضها المحظوظون الآسرون ، ضد الشعب الفرنسي ، وكان الفيشيون قد شلوا ما تبقى من الحريات الفردية والنقابية والبلدية والقوا ، بقيادة الجستابو ، جيشاً من رجال الشرطة الجواسيس ، وبثوا آذانهم في كل مكان... وعينت العناصر المشهورة برجعيتها في

جميع مراكز الادارة والشرطة في الجيش والبحرية وسائر الملاكات...

وكان العمال والوطنيون يلاحقون ويُسجنون ويعذّبون ويشنَقون او يقادون الى خشبة الاعدام .

وكان الفيشيون يدعون الى « الثورة القومية » ويقدمونها الى الناس على انها « تجديد معنوي وروحي ، وبعث مناقبي » والواقع ان هذا التجديد كان بمثابة عودة الى الوراء ، نحو الماضي الوحشي السحيق ، فلم تكن نظرية « الدين الضروري لخدمة الشعب » باكثر شيوعاً منها في عهد فيشي ، فعادت الكنيسة مؤسسة حكومية ، وكان بيتان ووزراؤه يحضرون الحفلات الدينية ، تحف بهم مظاهر الابهة والعظمة ، وأعلن في طول البلاد وعرضها ان الهزيمة التي حلت بفرنسا انما جاءت جزاء وفاقاً خطايا الشعب ، وكتبت الصحيفة الكاثوليكية « الجمهورية » تقول : ان هزيمة فرنسة نعمة من الله ، وذلك لانها تتيح للماريشال ان يقوم بالمعجزة ، ويرقى بمعنويات الامة ، وينقذ الروح الفرنسية » .

واذا كانت جماهير الفرنسيين الكاثوليكيين ظلت على وفائها لفرنسة فان كبار رجال الكنيسة لم يحرموا الخائن بيتان معونتهم ، بل أيدوه في سياسة الخضوع لهتلر ، وقد هتف الكاردينال جرلييه يوماً : « بيتان هو فرنسة ، وفرنسة هي بيتان ! »

وأعلنت الحرب على المدرسة اللادينيـة ، والتعليم اللاديني ، والمعلمين اللادينيين، وعدلت المناهج المدرسية وفقاً لروح رجعية متعصبة ضيقة ، معادية لفرنسة . و « طهّرت » كتب التاريخ مما يمكن ان يذكي الروح الوطنيـة ، فشوهت الثورة الفرنسية العظمى ، واصبحت انتصارات بوفين وفالمي على النمسة والمانية لا تعد امجاداً قومية !

هكذا كانت تلك « الثورة القومية » التي قام حزبنا يدعو الشعب الى مكافحتها منذ ايامها الاولى .

وجاء في صحيفة الدايلي تلغراف ، بعددها الصـادر في ٢٠ كانون الاول ١٩٤٠ :

« ان الحزب الوحيد الموجود في فرنسة هو الحزب الشيوعي، وان كان حزباً سرياً ، وقد اوقف في الشهر الماضي اكثر من الف مناضل من اعضـائه ، وهذا الحزب يقوم بنشاط عجيب مناهض للالمان يرتكز على اعمال التخريب ، ويعبيء القوى ، ويوزع المنشورات التي تخاطب الحسّ الوطني الفرنسي ، وتلهب عواطف الشعب » .

وفي الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٤٠ تجمع طلاب باريس وانطلقوا نحو تمثـال الجندي المجهول ليحتفلوا بذكرى هذا الجندي ويضعوا على تمثاله أكاليل الازهار والتظاهر ضد الجيش المحتـل ، فأطلق الهتلريون الرصاص ، واسقطوا بعض القتلى والجرحى من الطلاب، وبعد ايام علمت فرنسا ان بيتان ولافال

تخليا عن الالزاس واللورين لهتلر ، وان الالمان يخلون القرى ، في هاتين المنطقتين ، من سكانها الاصليين ، دون ان يسمحوا لهم بحمل شيء عدا اوراقهم الشخصية... وكان حزبنا هو الهيئة الوحيدة التي رفعت صوتها بالاحتجاج المدوي، واذاعت نداءات صاخبة ونشرتها في جميع ارجاء البلاد ...

وفي السابع والعشرين من نوار ١٩٤١ اعلن عمال المناجم في الشمال والبادي كاليه اول اضراب كبير ضد المحتل ، على الرغم من اعمال القمع الوحشية القاسية .

وفي الخامس عشر من نوار اعلنت لجنتنا المركزية التصريح التالي : « ان الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي يضع نصب عينيه تحقيق وحدة البلاد ، ونيل استقلال الوطن ، ويضع ايضاً مصلحة البلاد فوق كل مصلحة ، يصرّح رسمياً بانه مستعد ، في سبيل خلق جبهة واسعة للتحرر الوطني ، ان يدعم كل حكومة فرنسية ، وكل منظمة ، وكذلك جميع الرجال الذين تتجه جهودهم شطر النضال الصحيح ضد الاضطهاد الذي تعانيه فرنسة، وضد الخونة الذين يعملون في خدمة المحتل .

ومنذ اواخر ١٩٤٠ كان الشيوعيون قد الفوا نواة لمنظمة عسكرية متلائمة مع شروط النضال السري والارهاب الفاشي .

وجاء الاعتداء الهتلري على الاتحاد السوفياتي فاذكى روح النضال في صفوف المواطنين الفرنسيين، وبخاصة ، منظمة النضال المسلح ؛ فقد ادرك المواطنون ان تناسباً جديداً بين القوى قد

وجد ، وان انصار حرية الشعوب واستقلالها واثقون بالنصر ، وحتى ذلك التاريخ كان كثير من الفرنسيين يحتفظون بتشاؤمهم وشكهم في تحرر البلاد ولكن منذ ٢٢ حزيران ١٩٤١ كان المواطنون يقولون : لم نبق وحـــدنا . فنحن نستطيع التحرر والى جانبنا حليف كالاتحاد السوفياتي » .

ونشطت المعركة ضد المحتل ، وغدت اكثر قوة وتنظيماً ، وتضاعفت حوادث التخريب ، والاغتيال ، والحوادث المسلحة ، واثر خطـاب ستالين ، في الثـالث من تموز ١٩٤١ ، امتلأت جدران مدينة سان اتيان بالكتابات : « عاش الجيش الاحمر !» « عاشت روسيا السوفياتية » وفي الرابع من تموز ، في باريس ، سارت المواكب والمظاهرات ، وفي جميع ارجـاء فرنسا ، هوجمت الدوريات الالمـانية ، ونسفت مخازن الذخيرة ، وفي البادي كاليه تألفت شراذم الرماة الاحرار ، وجماعات الانصار بقيادة البطلين شارل ديبارج وجوليان هابيو اللذين اعدمهما الالمان بالرصاص فيما بعد .

واخذت هذه القوات تهاجم الالمان بالقنابل اليدوية ، في هينين لياتار ، واوشيل ، وهارن ، وتخرج القطـــارات عن خطوطها ، وتنسف المصانع ، امـا في باريس فالرماة الاحرار الشيوعيون ، جعلوا يهاجمون الالمان حتى في ساحة الكونكورد.

وضاعفت حركات القمع القيشية والهتلرية من قوتها ، وغطى الفستابو الجدران بالبيـــانات الثائرة المهددة . واعلنت بمساعدة

بعض الخونة « الفرنسيين » قوائم من اسمـــاء الرهائن . وكان بيشو ، وزير الداخلية في حكومة بيتـــان ، يحكم بوساطة جواسيسه ورجال شرطته ، وينشيء المحاكم الخاصة التي تلتئم وفقاً لاهواء الالمان ، وتحاكم المتهمين دون ان تتيح لهم فرصة الدفاع عن انفسهم ، وهوت المقصلة عـــلى عنق جان كاتيلا ، النائب الشيوعي ، واحد المحاربين القدماء في ڤردان ، واثارتني هذه الجريمة حين علمت بنبأها ، فما كنت استطيع ان اصرف تفكيري عن هذا المشهد المفزع ، فكنت اتصور رأس رفيقي ؛ وصديقي ، هذا الرأس ذا القسمات الفتية العازمة ، تقطعه شفرة المقصلة ...

وفي ربيع عام ١٩٤١ اعتقل غابرييل بيرى ، الرجل الذي ناضلتُ معه عشرين عاماً في صفوف الشبيبة الشيوعية ، والذي فضح سياسة دالاديه ـ بونيه بشجاعة مـا بعدها شجاعة ، وفي الخامس عشر من كانون الاول اعدمه الالمان بالرصاص عـلى جبل ڤاليريان ، وقبل موته بساعات قلائل كتب :

« عدت الى ضميري ، آخر مرة ، اتفحصـــه وابلوه ، وكان عملي ايجابياً جلياً ، انني على يقين مما وجدت . ولو قدر لي ان استعيد حياتي ، لسرت في طريقي التي سلكتها من قبل ، لقد قضيت هزيعاً طويلاً من ليلتي الاخيرة افكر فيما قاله ـ بحق ـ رفيقي وصديقي فايان كوتيرييه ، وهـو « ان الشيوعيـة شباب العالم » وانها تهيء الغد المنشد... بعد قليل سأهييء لرفاقي الغد

المنشد ... »

وبعد اشهر اعدم الالمان بيار سيمار ، زعيم عمال السكك الحديدية وامين السر العام للحزب الشيوعي سابقاً ، وقد اوقف منذ اوائل الحرب ، والسطور التي كتبها قبيل موته تبين الى اي الذرى تسمو شجاعة المناضلين الشيوعيين ، والى اي مدى يبلغ وعيهم :

« ان افكاري الاخيرة معكم يارفاق النضال ، انها مع اعضاء حزبنا العظيم ، ومع جميع المناضلين الفرنسيين ، ومع المحاربين في صفوف الجيش الاحمر السوفياتي ، وقائده ستالين العظيم ، وداعاً يا اصدقائي الاعزاء ، ان ساعة موتي تقترب ، لكنني اعلم ان النازيين الذين سيعدمونني قضي عليهم بالهزيمة ، وان فرنسة ستناضل نضالها العظيم . عاش الاتحاد السوفياتي وحلفاؤه ! عاشت فرنسا ! »

واذكت بسالة ابطالنا ، وعظائم الانصار ، ارادة الجماهير الشعبية ودفعتها الى النضال ؛ وفي ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، وهو يوم الذكرى السنوية لعدوان الالمان على الاتحاد السوفياتي ، فر تسعة عشر شيوعياً وعلى رأسهم جورج كونيو من معتقل رويالبو ، بحفرهم نفقاً تحت الجدران ، وكان اخي لويس بين الفارين ، ولكنه اعتقل وسلم الى الهتلريين فأعدموه رمياً بالرصاص .

وهوت قبضة الالمان على المناضلين من عمال ومثقفين ،

فكانت تعدمهم بالمئات ، ولا بد ان اذكر من بينهم بوليتزر وسالومون ، وبيتار وفيدلمان... الخ...

وألهبت ذكرى الشهداء ، مناضلين آخرين، فأقام الرماة الاحرار حواجزهم في طرقات الالمان ، وفتكوا بالكثيرين منهم ، وهاجموا القوافل، والقوا قنابل يدوية كثيرة على ثكنات الاعداء ، وفي ١٩ نوفمبر ١٩٤٢ تحول الجيش الاحمر الى الهجوم امام ستالينغراد ، وفقاً للخطط التي وضعها ستالين بنفسه ، وكان ذلك الهجوم نقطة تحول خطير حاسم في مجرى الحرب . وفيما كان الجنود السوفياتيون يثبتون اقدامهم في ساحة القتال ويدافعون عن المدينة بيتاً فبيتاً ، وطبقة فطبقة، وغرفة فغرفة ، وسط ركام الخرائب ، كانت الفرق الروسية تعمل شمالي ستالينغراد وجنوبيها لخرق خطوط الاعداء .

وانطبقت هذه الفرق على جيش هتلري يبلغ عدد رجاله ٣٣٠٠٠٠ رجل ، فسحقته سحقاً وأسر ٩٠٠٠ رجل منهم ، ومن شواطيء الفولغا بدأ ذلك الزحف السوفياتي العنيد، شطر الغرب، الذي قدر له ان يقود المنتصرين الى ابواب برلين، بعد معارك ضارية قاسية. وساعد صمود الجيش الاحمر والتضحيات الكبرى التي بذلتها الشعوب السوفياتية على ايجاد فرصة هيأت للولايات المتحدة وانكلترا وقتاً للتأهب، وفي الثامن من نوفمبر ١٩٤٢ نزلت قوات الحلفاء الى افريقيا الشمالية ، ولكن نزولها لم يؤلف الجبهة الثانية التي كانت تنتظرها وتلح في طلبها الشعوب الخاضعة للنير الهتلري...

والمناضلون على جبهات الشرق ، الذي قضي عليهم ان ينتظروا ثمانية عشر شهراً وان يتحملوا وحدهم اعباء الحرب...

واثر معركة ستالينغراد ، رأى شطر من البورجوازية الفرنسية ان القضية الهتلرية خسرت ، فالقى الخارطة الالمانية على الارض واستبدل بها الخارطة الاميركية ، ووصل الى افريقية فيشيون خونة واحتلوا مراكز رسمية !

كان نزول الحلفاء الى الشواطيء الافريقية « يساعد — كما صرح ستالين — على انشاء قاعدة تنظيم جيش فرنسا ضد هتلر.» واصبح ممكناً توحيد جميع القوى الفرنسية وتنظيمها لاستعجال الهزيمة الهتلرية ، على ان يستبعد الانهزاميون والمتعاونون مع العدو . واسهم في الحملات والمعارك المؤدية الى النصر، المناضلون في صفوف الحزب الشيوعي الجزائري ، والنواب الشيوعيون السبعة والعشرون الذين اطلقهم الجنرال جيرو في ٥ شباط ١٩٤٣ . والمناضلون الشيوعيون الاربعمئة الذين افلتوا من معتقلات افريقيا .

وبعد يومين من اغراق الاسطول الفرنسي في طولون (٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٢) اجتمع مندوب عن لجنتنا المركزية ، ومندوب عن الجنرال ديغول ، واتفقا على منهج للعمل المشترك ، مؤسس على تفاهم وثيق بين الحزب الشيوعي الفرنسي والقوات الفرنسية الحرة ، لاعداد الثورة الوطنية .

وفي كانون الثاني ١٩٤٣ وصل فرنان غرانييه مندوب

البعثة المركزية للحزب الشيوعي الى لندن واتصل باللجنة الفرنسية للتحرر الوطني. وفي شهر آذار تألف في فرنسا المجلس الوطني للمقاومة وفيه ممثلون عن الاحزاب السابقة ، والسي جي تي ، والنقابات المسيحية ، وسائر حركات المقاومة ومنظماتها .

وكانت اهدافنا في اللجنة الفرنسية للتحرر الوطني تتلخص في خمسة مطالب اعلنها جاك ديكلو ، في الثالث من كانون الاول ١٩٤٣ ، في صحيفة الانسانية الصادرة سراً :

« انشاء جيش قوي ، وتسليح المواطنين ، ومعاقبة الخونة ، وتطهير الدوائر العامة ، والمناداة بسياسة ديموقراطية اجتماعية ، من شأنها ان تذكي الحماسة لمعركة التحرر ، وسياسة اخاء حقيقي بين فرنسة وبلاد ما وراء البحار (المستعمرات) . وان تمارس فرنسة دوراً اعظم نشاطاً في الامم المتحـــدة لتطوير جهودنا الحربية» وفي نيسان ١٩٤٤ انضم بيو غرانييه الى اللجنة الفرنسية للتحرر الوطني استجابة لرغبات الجماهير الشعبية .

وفي نوار ١٩٤٣ سافرت بوصفي عضواً في مكتب الاممية الشيوعية ، الى موسكو ، واشتركت في المناقشات التي ادت الى حل مجلس الاممية . وخلال ربع قرن ، حركت الاممية الشيوعية والهمت ، وقادت معركة المستثمَرين ضد المستثمِرين، في جميع بلاد الدنيا ، وحافظت هذه الاممية على تعاليم ماركس وحمتها من المزورين اتباع الاشتراكية الديموقراطية ، وجمعت

العمال الثوريين في احزاب عمالية سليمة . ونظراً الى المرحلة التاريخية الجديدة ، ونظراً لتنوع الحركة العمالية في كل بلد وتفاوت درجاتها وقواها ، رأى مكتب الاممية ان شكل التنظيم الاممي اصبح لا يفي بمتطلبات النضال ، وكنا نستوحي ماركس وانكلز فيما نعمله، فقد عمدا الى حل «الجامعة الشيوعية» (١٨٥٢) ثم حل الاممية الاولى بعد ان ادت دورها التاريخي والقت الدعائم لانشاء الاحزاب العمالية (١٨٧٦) .

وقررنا ان نقترح على الاحزاب الشيوعية المنضمة الى مجلس الاممية حل الاممية الشيوعية بوصفها مركزاً لادارة الحركة العمالية العالمية فوافقت هذه الاحزاب على اقتراحنا بالاجماع .

وفيما كان الجيش الاحمر يتقدم ، كان النضال ضد الهتلريين يشتد ، ففي عام ١٩٤٣ قام الانصار بالفي هجمة حربية على الخطوط الحديدية، وقام الطيران الحليف بحتمعاً بالف وستمئة ، ورغم هذا كان قادة الحلفاء يرفضون امداد مناضلينا بالاسلحة ، وفي ايلول ١٩٤٣ قام الانصار الكوريسيكيون وحرروا الجزيرة وطردوا الالمان والايطاليين منها .

وفي عام ١٩٤٤ انضمت قوات الانصار والرماة الاحرار الى سائر القوات المسلحة وكان قائد الجبهة الداخلية رفيقنا الجنرال جوانفيل ، واصبحت المعركة اعظم اتساعاً واكثر جدوى . ومهدت ، على نحو مفيد حقاً، لنزول قوات الحلفاء . وبعد حوادث ٦ حزيران شهدنا ثورة حقيقية جماهيرية في مقاطعات

بريتانيا والالب والبرانس واجورا . وثمة دوائر حررت نفسها بنفسها .

كان ذلك هو البعث القومي حقاً . وعند اقتراب جيوش الحلفاء ، وجنودنا القادمين من افريقيا ، نهضت باريس ضد المحتلين ، في آب ١٩٤٤ ، وتحررت . وهناك ايضاً كان الشيوعيون في الصفوف الاولى من المعركة .

هكذا انقذ الشعب فرنسة مرة اخرى . وخيل الينا ان مستقبلاً مشرقاً ينتظر شعبنا الذي طالما ناضل وتعذب ليمحو اخطاء حكامه وجرائمهم، وقد حدد المجلس الوطني للمقاومة في منهاجه الصادر في ١٥ آذار ١٩٤٤ المباديء التي تساعد على تأسيس ديموقراطية جديدة ارحب افقاً مما عرفته فرنسا في ماضيها . واقترح المجلس ايضاً التدابير التي يجب الاخذ بها ، عقيب تحرير البلاد ، وكان يطالب بمعاقبة الخونة ومصادرة اموالهم ، وتأميم وسائل الانتاج الكبرى التي خضعت في عهد بيتان لشركات الحصر والحكر ، وكان يطالب باشراك العمال في ادارة الاقتصاد ، واقرار حق العمل وحق الراحة ، وانشاء منهج كامل للضمان الاجتماعي ، ورفع مستوى حياة العمال ، واعطاء الشيوخ المتقاعدين ما يكفيهم من المال لحياة شريفة ، وتوسيع دائرة الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية في فرنسا ومستعمراتها ...

كانت هذه المطالب جميعها تساعد على تأسيس جمهورية

جديدة ، وكان من شأنها ايضاً ان تمد المؤسسات الديموقراطية ، بفعالية افتقرت اليها قبل الحرب، فسقطت فرنسا في شرك الخونة والانهزاميين .

والمت بالبلاد انتفاضة شعبية كبرى ، وحركتها من اقصاها الى اقصاها ، وكان الناس متعطشين الى حياة جديدة ، وبدأت قوى الرجعية تتستر وتختفي ، فقد كان الذين تعاونوا مع العدو يرتجفون فرقاً من ساعة الحساب . واخذوا يعملون ، في السر، لتحطيم اندفـــاع المواطنين ، وشل عزائم الشعب ومعنوياته ، وشعرت وانا في موسكو ، بهذه المؤامرة ، وحاول الرجعيون ان يؤخروا عودتي الى فرنسة ، بمناورات افعوانية ناعمة ولكن النقمة الشعبية وقفت بالمرصاد واحبطت المؤامرات الرجعية ، وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني وصلت الى باريس .

ولم تكن المعركة قد انتهت بعد ، فالالمان مازالوا يهددون ستراسبورج ، وبعض قواتهم تلجأ الى معاقل الشاطيء ، وتحتل دانكرك ، ولوريان ، وسان نازير ، ولاروشيل ، واثر نزولي من الطائرة تأهبت للخطابة في سكان باريس الذين سبق لى ان حذرتهم من عواقب السياسة المونيخية .

وفي مساء ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، في صـــالة فيل ديف الكبرى ، وامام جماهير كهربتها الحماسة والنشوة فأخذت تصفق وتغني وتهتف، فيما ملأت عشرات الالوف من السكان الطرقات المجاورة ، حتى بلغت ضفاف السين ، وقفت اخطب في الجماهير ،

وانا شدهم الاتحاد لنيل النصر ، وكنت اطلب ، باسم الحزب الشيوعي ، أن يحقق الشعب تسليح الجنود ، واعـــادة بناء صناعتنا، ومعاقبة الخونة، والثقة بالشعب في بناء الدولة، والاعتماد على صداقة الاتحاد السوفياتي ، واعداد نهضة الوطن وخلقهـــا باتحاد القلوب واتحاد العقول ، وكنت أطالب بالعمل في جهد عظيم واخلاص اعظم والنضال في سبيل انشاء فرنسة ديموقراطية حرة مستقلة .

وكانت شعارات حزبنا للمستقبل «الاتحاد والعمل والنضال» وفي كانون الثاني ١٩٤٥ اثناء اجتماع اللجنة المركزية بايثري ، اوضحتُ ضرورة استخدام جميع موارد البلاد وزيادة جهودهـا في سبيل النصر وكانت جميع المناحي التي امامنا ، من اقتصادية وثقافية وسياسية واجتماعية ، تشكل مهمات شاقـة ، من البناء والاصلاح ، تتطلب من الفرنسيين جهوداً صامـدة مستمرة ، وما كان يكفي الشعب التمضمض بعبارات تنادي بعظمة فرنسة وخلود مجدها ، بل كان عليه ايضاً ان يعمل في عزم واصرار ، وان يناضل ، كما ناضلنا ، لطرد العدو المجتاح .

وكان فابيان ، بطل الرماة الاحرار ، والانصـار ، الذي سقط في ساحة الالزاس ، يدلنا ، بحياته واستشهاده ، كيف يحسن ابناء الشعب النضال ، ان تضحيات فابيان وسواه من الشهداء لم تكن عبثاً بل انها ستلهمنا دائماً وتهدينا سواء السبيل.

وفي الطرف الآخر من ساحات القتال كان الجيش الاحمر

الظـــافر يحطم كل عقبة في طريقه ، ويجرف الحواجز امامه ، وفي اواخر نيسان كان يدخل الى برلين ليسحق رأس التنين الهتلري ، ويركز الراية السوفياتية عـلى قصر المستشارية الذي انطلقت منه فيما مضى زوابع الحديد والنار .

فليتعلم من هذا الدرس التاريخي ، اولئك الرأسماليون الذين يريدون ان يستعيدوا الخطة الهتـــلرية في السيطرة على العالم .

خاتمة

ان المناضل الذي يهدي هـذه الصفحات الى رفاقه في العمل والنضال، والى جميع الذين يتعذبون ويجهدون ويأملون ، ليثق اعظم الثقة بأن سفينة الشعب ، ساعة هبوب عواصف جديدة عليها ، لن تغرق في الاعماق ، ولن تجنح نحو صخور العبودية والحرب ، بل انها تنطلق ، كما قال الشاعر ، شطر مستقبل من النور ، والحرية ، والاخوة ، تقودهـا الطبقة العاملة ، ومثلها الاعلى النبيل المتجسّد في المناضلين :

الى المعرفة التي نراهـــا متلألئة في الآفاق ...

الى موت الطغاة ، وزوال الكوارث ... الى النسيان الكريم ...

الى الرخاء والسكون ... الى المرح .. الى الانسان السعيد ينطلق ... هذا المركب المجيد .

---

٥٠ / ٦ / ٥٣